الفاتح وتسامح الإسلام

قام الفاتح بتوجيه رسالة الإسلام السمحة عسى أن يفهمها أصحاب الفكر الصليبي العنصري، وتمثلت رسالته في إجراءات عظيمة نذكر منها:

١ ـ إطلاق سراح الأسرى فوراً نظير مقابل مادي قليل يسدد على أقساط طويلة المدى.

٢ ـ إسكان الأسرى الذين كانوا من نصيبه في المغانم في المنازل الواقعة على ساحل الخلية.

٣ ـ عندما أُبيحت القسطنطينية للجنود ثلاثة أيام عقب الفتح، كان هذا الإذن مقتصراً على الأشياء المعنوية، فلم تغتصب امرأة، ولم يمس شيخ عجوز ولا طفل ولا راهب بأذى، ولم تهدم كنيسة ولا صومعة ولا دير ولا بيعة، مع أن المدينة أخذت بالحرب ورفضت التسليم.

٤ ـ كان من حق الفاتح قانونًا ـ مادامت المدينة قد أخذت عنوة وبالقوة ـ: أن يكون هو نيابة عن الجيش الفاتح مالكًا لكل ما في المدينة وكان، من حقه أيضًا تحويل نصف الكنائس والبيع وعلى مدى زمني طويل إلى جوامع ومساجد، وترك النصف الآخر لشعب المدينة على ما هو عليه، وفي وقفيات السلطان الفاتح بنود كثيرة على إبقائه (أديرة جوكاليجا ـ وآيا ـ وليبس ـ وكيراماتوا ـ والكس) في يد البيزنطيين[1].

٥ ـ اعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم كاملة، وأنعم بالعطايا على الحاخام (موسى كابسالي).

---

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» د/ محمد حرب (ص٧٥).

٦ ـ عين في ١٤٦١م للجماعات الأرمينية بطريقًا يُدعى (يواكيم) ليشرف على مصالح الأرمن، ويوحِّد صفوفهم.

٧ ـ بدأت أعمال تعمير مدينة القسطنطينية إبتداءًا من ٢ يونيه ١٤٥٣م، وكان الفتح يوم ٢٩ مايوم من العام نفسه، وأمر بنقل جماعات كثيرة من مختلف أنحاء الدولة إلى القسطنطينية للإسهام في إعادة إنعاشها.

٨ ـ أعاد الفاتح للأرثوذكس كرامتهم التي أهدرها اللاتين الكاثوليك بأن أعطاهم حق إنتخاب رئيس لهم يمثلهم، ويشرف على شؤونهم، وأصبح سكولاريوس (جناديوس) أول بطريق لهم بعد الفتح العثماني للقسطنطينية، وبذلك أنقذ الفاتح إيمان الأُمة التي فتح ديارها، وأحيا الأرثوذكسية بعد أن أخذت تخفت (لاحظ أن هذا التصرف من الفاتح تسبب في تكتل أوربا الكاثوليكية ضده).

٩ ـ جعل الفاتح مسائل الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق والميراث وأمور الوفاة الخاصة بأهل المدينة المفتوحة من حق الجماعات الدينية المختصة.

١٠ ـ كانت مسؤليات العاصمة كبيرة، ولا يمكن أن يقوم بها شعب قليل العدد بقى فيها بعد سقوطها بأيدي المسلمين، وكان كثير من الجماعات الإسلامية تدرك قيمة موقعها التجاري للانتقال إليها والاستفادة من ذلك، بالإضافة إلى الفرص العديدة التي تسنح من وجودها بالقرب من الحكومة المركزية؛ لذلك استمرت هذه الهجرات الإسلامية إلى المدينة حتى أضحت عاصمة إسلامية كاملة، ومع ذلك لم يهمل السلطان الفاتح أمر سكانها الأصليين، فشجع من هاجر منهم على العودة والاستمرار في مزاولة نشاطهم، وبذلك زوَّد دولته بفائدة سياسية وثقافية قوية[1].

---

(١) «العثمانيون» د/ محمد سهيل طقوش (ص٩٦).

١١ ـ عمل السلطان الفاتح على تشجيع بقاء الجالية الجنوية التي كان لها دور كبيرٌ في تنمية التجارة، فأبقى ما كان للجنويين من امتيازات وزاد عليها، فكانوا بذلك أداة لنمو ثروة المدينة من جهة، وواسطة للاتصال بالدول الأُوربية من جهة أخرى.

١٢ ـ نهج السلطان العثماني سياسة التسامح الديني حتى يتسنى له الاستفادة من العناصر المسيحية التي أضحت تكوِّن رعية السلطان المسؤولة عن استثمار البلاد، ولهذا أبقى المسؤوليات الدينية للأرثوذكس في يد الكنيسة وعلى رأسها بطريك الروم.

وعلى كل الأحوال، فإن هذا النصر على عِظَمِه وبهائه وفخامته، لم يبطر ولم يُزه ذلك السلطان الشاب (محمد الفاتح) الذي لم يكن قد جاوز الرابعة والعشرين من عمره حينذاك، فلم يدخل المدينة دخول الملوك العتاة الجبابرة المفسدين، بل دخلها خاشعًا متخشعًا، وسجد على الأرض وحثا التراب على رأسه شكرًا لله على ما مَنَّ عليه من توفيق ونصر، ورفق بأهل القسطنطينية ولاينهم ورفق بهم وواسى الضعفاء والعجزة منهم، فكان فتح القسطنطينية مفخرة من مفاخر الإسلام التي يزهو بها التاريخ ومجدًا من أمجاده الخالدة الباقية على الدهر . . وبعد ذلك الفتح المبين؛ أطلقت على السلطان محمد الثاني كنية: «أبو الفتح».